



ربما حقق فلاديمير بوتين انتصاراً عسكرياً ودبلوماسياً في حرب سوريا المت渥حة، ولكن السؤال الأهم: هل هو قادر على كسب السلم وتحقيق تسوية قابلة للحياة؟ كيف يمكن موسكو تحقيق ذلك وهي تقدم للعالم بشار الأسد، المسؤول الأول عن الجرائم، كطرف رايب في الحرب؟

«انتصار» بوتين يضمن لدمشق البقاء وإن كان يعزز أيضاً وجود موسكو العسكري، ولكن لهذا الانتصار تبعاته السياسية أيضاً.

روسيا تقود الآن تحالفاً مهماً (على رغم التناقضات الحادة بين أطرافه) مع إيران وتركيا، في مسعى لرسم تشكيل جديد لسوريا. السعودية، كلاعب رئيسي في الإقليم، وجدت في التحالف الجديد ما يثير اهتماماً عبرت عنه جيداً من خلال زيارة الملك سلمان بن عبدالعزيز موسكو منتصف تشرين الأول (أكتوبر) الفائت، وهي الأولى لعاهل سعودي إلى روسيا. آفاق التعاون بين البلدين واسعة النطاق باعتبارهما أكبر منتجين للطاقة في العالم، كما عكسها التوقيع على 15 اتفاقية بقيمة قدرت بثلاثة بلايين دولار بينها نظام دفاعي روسي إس-400. وزير الخارجية سيرغي لافروف وصف العلاقات بعد زيارة الملك سلمان بأنها «وصلت إلى مستوى نوعي جديد».

لا شك في أن لتدخل روسيا في سوريا أسبابه وهي بطبيعة الحال مختلفة عن دوافع إيران وتركيا. وهنا تجد السعودية إمكاناً عملياً لمناقشة الملف السوري مع روسيا باعتبارها الطرف الأقوى في التحالف الثلاثي والجهة التي تمثل عملياً شريان الحياة لنظام الأسد. فاستقبال بوتين المفاجئ وال سريع لها هذا الأخير في سوتشي أكد على شكل العلاقة بين دمشق وموسكو.

فعداً أن أحد أهداف موسكو الرئيسية تأسيس موقع قدم لها في مياه المتوسط، وهو الوجود الوحيد لها خارج حدودها باستثناء شبه جزيرة القرم، يستهدف تدخلها منذ اليوم الأول حماية النظام والحيلولة دون تأثير «الربيع العربي» في شكل الحكم في المناطق القريبة من حدودها. وهذا ما حدث بالفعل إذ ساهم دخول موسكو بقوتها الجوية الضاربة منذ 2015 إلى جانب قوات «الحرس الثوري» الإيراني وميليشيات حزب الله اللبناني، في انتشار قوات النظام من هزيمة كارت تكون محدقة بفعل الثورة الشعبية التي كانت في معظمها عفوية في شمال البلاد وجنوبها وشرقها، وقبل زمن طويل من ظهور «داعش».

لولا هذا الدعم المباشر من موسكو وتزويدها قوات النظام بكل ما فقدته في المواجهة مع المعارضة الشعبية المتصاعدة وتوفير الغطاء الجوي وتقديم المساعدات اللوجستية الأساسية لها، لما تمكن نظام الأسد من البقاء طوال هذه المدة ومن لجم تقدم الانتفاضة الشعبية ضده. صحيح أنه لم يتم القضاء نهائياً على المعارضة، ولكن العملية الروسية ومعها تدخل إيران و«حزب الله» وخذلان العالم لها، أثّرت في معنويات الانتفاضة وأحيطت الكثير من آمالها.

طبعاً لا تزال ثمة قوى معارضة تنشط في بعض المناطق، لا سيما تلك الممتدة في الشمال على الحدود مع تركيا. ولا شك في أن هذه القوى ستستمر في المحافظة على مواقعها ولن يتمكن الأسد من دحرها ما دام دعم تركيا لها مستمراً. إلا أن هذا الدعم قد يتغير إذا ما دخل الرئيس الماكر رجب طيب أردوغان في صفقة شاملة مع إيران وروسيا والإدارة الأميركيّة لکبح جماح النشاط الكردي المعارض في سوريا الذي تقوده «وحدات حماية الشعب الكردي»، الذراع العسكري لحزب الاتحاد الديمقراطي الكردستاني. هذه الوحدات أكدت لنفسها ولحيطها الإقليمي وجوداً عسكرياً مميزاً لها منتصف عام 2015، بانتصارها على ميليشيات «داعش» في بلدة عين العرب (كوباني) بدعم أمريكي مباشر. في تشرين الأول (أكتوبر)، تم تشكيل تحالف قوات سوريا الديمقراطيّة (قسد) من قوى مختلفة تشكل الوحدات الكردية عصبه الأساسي وبiederها وحدها مسؤولية وضع الخطط العسكريّة.

بعد نجاحها في كوباني، استعدت الوحدات الكردية لخوض معركة تحرير بلدة عفرين الواقعة مباشرة عند الحدود التركية، التي يعتبرها أردوغان شأنًا تركياً خالصاً لا يسمح لأي طرف آخر بالتدخل فيه. وكان الرئيس التركي قد رفض اقتراحاً بتوجيه الدعوة إلى «قسد» للانضمام إلى مفاوضات سوتشي المرتقبة، وأجرى اتصالاً مع الرئيس الأميركي في هذا الخصوص الذي لم يستجب لطلبه فحسب، بل أبلغه (وفق الرواية التركية) أنه قرر وقف الدعم العسكري وأمر بإيقاف توريد الأسلحة إلى «قسد» التي تقودها الوحدات الكردية. تركيا في النهاية حليف استراتيجي عضوي للولايات المتحدة وركن أساسي في منظومة الناتو، وباتت واشنطن تدرك جيداً أن لا شيء عنده أكبر من الهاجس الكردي الذي يدفعه لتعزيز تحالفاته بسرعة ومن دون إنذار مسبق.

إذًا، الانتصار الروسي في سوريا كما ترغب موسكو في أن تنظر إليه، هو بالنسبة لبوتين تمرين في الواقعية السياسية لا يأخذ في الاعتبار على الإطلاق انتقادات المجتمع الدولي لسلوك روسيا في سوريا. فروسيا تقف إلى جانب نظام حكم لا يوجه أسلحته الفتاك ضد شعبه فحسب، بل يرتكب جرائم حرب أيضاً. فهي حمت حكومة بشار الأسد أمام الضغط الدولي احتجاجاً على استخدامه غاز السارين وأسلحة كيماوية أخرى ضد أهداف مدنية عدة في السابق.

هذه من المسائل التي قد تعرض موسكو لمشاكل دبلوماسية مقبلة. فالتحالف الذي يجمع موسكو مع دمشق وطهران وأنقرة راهناً قد لا يصمد نتيجة تغير أو اختلاف الأهداف الاستراتيجية لكل منها في المدى المتوسط. أضف إلى ذلك مسألة مهمة تتعلق برغبة إسرائيل في كبح النفوذ الإيراني في دمشق، وواضح أن موسكو تفهم قلق إسرائيل الأمني، إذ بات هذا الأمر بندًا ثابتاً على جدول أعمال لقاءات بنيامين نتنياهو الثمانية التي أجراها مع بوتين في السنوات الخمس الماضية وكان آخرها في آب (أغسطس) الفائت. ففي الوقت الذي تفهم فيه إسرائيل طبيعة تحالف موسكو مع دمشق، فهي تؤكد دائمًا ضرورة أن تضع روسيا خطًا أحمر يجدر بالأسد ألا يتجاوزه في علاقاته مع طهران.

يبقى السؤال الأهم: في غياب واشنطن عن التفاصيل، هل تستطيع موسكو وحدها الجمع بين مصالحها الاستراتيجية وكبح جماح طهران وتهيئة نتنياهو وإرضاه أردوغان وفهم مطالب قوى التحالف العربي في الإقليم وإقناع السوريين بجدوى الأسد؟

المصادر: